تبديد القامات المصرية:
بين التجميد، والاختزال! (*)

كنت مدعواً، ولعل ذلك فى أواخر ١٩٩٩ أو أوائل ٢٠٠٠، لمحاضرة يلقيها الشاب / جمال مبارك عن توجهات مصر الاقتصادية، ومن صفوف المتلقين، خرج يومها شيخ يبدو حول الستين أو فاتها بقليل، ليعقب بتعقيب ففوجئت كما فوجئ غيرى به يقدم نفسه قائلاً، أنا "الشاب" صبرى الشبراوى، فضجت القاعة بالضحك للقفشة الموحية التى لم يدع الدكتور الشبراوى مجالاً للخطأ فى تحصيل مغزاها، فأردف يقول: قلتم من سنوات تعالوا إلى مصر، إنها فى حاجة إليكم، فتركت موقعى الرفيع فى إحدى الجامعات الأمريكية التى درجت على التدريس فيها من سنوات، وشددت الرحال إلى مصر مليئاً بحماس هائل للعطاء، فقلتم لنا رويداً، لأنك لم تصل بعد إلى سن الشيوخ الذين إليهم الحل والعقد، فما هى إلاّ سنوات والعمر القصير ينصرم، حتى سمعت من يقول: لقد فاتكم السن، ولحقت بكم الشيخوخة، ولم يعد للاستعانة بكم محل بعد أن عدلنا إلى الشباب.. لذلك، فأنا أقدم نفسى لكم: "أنا الشاب صبرى الشبراوى"!

لا أحسب أن المجال كان مجال ضحك، أو يجوز فيه الضحك، ما لم يكن ضحكاً كالبكاء!.. فمن قبلها بسنوات خرج الكاتب الساخر أحمد رجب بشخصية "عبده مشتاق" ومحل عصير عبد

---

* ٢٠٠٥/٨/٣١

الجواد.. أحزننى وأدهشنى أن الرمز الحقيقى للكاريكاتير ضاع فى غمرة الأخذ بالظاهر وإطلاق السخرية والنكات على "المشتاقين" دون أن يدرك أحد أن الاشتياق" - وهو طموح طبيعى فى النفوس البشرية - يترجم عن حالة جمود أغلقت الرتاج بالضبة والمفتاح - تحت شعار الاستقرار!!! - أمام التغيير وتواصل الأجيال!! - قد فهمت أن المغزى البعيد للكاريكاتير وشخصية "المشتاق" ترمز إلى شيوع الركود والجمود وانغلاق أبواب الأمل أمام القامات والأجيال فى المشاركة، وهى قسيم الإحساس الواجب بالانتماء، ولكن النكتة مضت فى الفلك بالمعنى المغلوط والذى أعطى لها، ولعله راق أو أرضى مطلقها، فسكت عن بيان المقصود أو الذى يجب أن يكون مقصوداً!! ٠

ظلت الأيام تمضى حتى ضربت أرقاماً قياسية فى جميع المواقع والمجالات بلغت بشاغليها ربع قرن تزيد أو تنقص قليلاً!.. وطال ذلك مناصب الوزراء، بل وضرب رئيس للوزراء رقماً قياسياً للبقاء فى منصبه، وطال ذلك رئيسى مجلسى الشعب والشورى اللذين مكثا سنين عدداً ناهز أحدهما الثمانين وجاوزها الآخر ببضع سنوات، وطال الوزراء الذين نيف بعضهم فى مواقعهم على ربع قرن، وحتى نيف بعضهم على الثمانين! - وامتد إلى الصحافة، وإلى مواقع الحزب الحاكم الذى طاله جمود بالغ لم يحظ بأى تغيير أو تبديل! وأعجبت الصورة باقى الأحزاب، فبقى رؤساؤها فى مواقعهم لم يفصلهم عنها إلاّ "الموت" (الأحرار والوفد) أو "حل الحزب" (العمل)!! ومضى الركود والجمود التام على حاله، حتى انشق صدر أحد أبناء النظام، فانطلق الدكتور مصطفى الفقى بمقال له فى الأهرام يقول إنه من الجيل المسروق، أو ما يسمى الميزانين "على حد تعبيره، قد كان سفيرا، وأعطى رئاسة لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشعب بعد تعيينه فيه، ولكنه رأى الجمود قد طاله فأوقف نموه الذى آراده !!٠

واقع الأمر أن الجمود الذى ران طال كل شىء.. فانقطع توالد القامات العالية لأن المناخ لم يعد يثمر ما كانت تثمره الحياة الولادة فى مصر المحروسة.. يكفيك أن تنظر فى ثراء الماضى، وأن تقارن به إجداب الحاضر!.. لن يخدعك بعض البقايا التى نبتت واقعاً فى الزمان المولى! ما الذى قدمته الحياة الراكدة بالجمود والتجميد بديلاً أو امتداداً فى الفكر والأدب للعقاد وطه حسين والحكيم ولطفى السيد وهيكل ويحيى حقى وزكى نجيب محمود وسلامه موسى والمازنى ونجيب محفوظ ويوسف إدريس والتيمورين وغيرهم، ومن الذين قدمتهم فى الموسيقى امتداداً لسيد درويش وعبد الوهاب وزكريا أحمد والسنباطى والقصبجى وصالح عبد الحى وفريد الأطرش والموجى وبليغ والطويل، أو من ملأ ساحة الغناء محل أم كلثوم وليلى مراد وأسمهان وفتحية أحمد وشهرزاد وأحلام وعبد المطلب وكارم وقنديل وشادية ونجاة ورشدى والعزبى وعبد العزيز محمود وإبراهيم حموده وعبد الغنى السيد؟! وأين هى المدارس التى ملأت فى المسرح مكان مدارس عزيز عيد وجورج أبيض ويوسف وهبى والكسار والريحانى.. لحق بهؤلاء مدبولى والمهندس وأدركا عن السابقين رسالة التواصل والإنبات، ورأيت بعينى إبان كنت طالباً بالجامعة كيف يحمل كل من مدبولى والمهندس محفظة متواضعة ملأى بالنصوص يجوبان بها فرق الجامعة المسرحية.. من عباءتهم خرج من مسرح الجامعة عادل إمام وصلاح السعدنى وسمير غانم وغيرهم.. كان التوليد والتواصل هَمّ وشاغل قامات ذلك الزمان لأنه هكذا جرت وكانت تجرى الحياة.. قاد البارودى وإسماعيل صبرى وأترابهما حركة الإحياء فى الشعر للخروج من وهدة الشعر المملوكى الركيك بإحياء الشعر العربى القديم، ومن التواصل مع هؤلاء خرجت مدرسة شوقى وحافظ، ورغم التصادم الظاهر بهما، فإن مدرسة الديوان للعقاد والمازنى وشكرى كانت من آثار هذا

التلامس مهما كانت أشكاله، لتتوالى جماعة أبوللو، ومجموعة الرومانسيين، إلى حركة الشعر الجديد الذى لا زلت أرى من أقطابه، أحمد عبد المعطى حجازى لا يترك أمسية نلتقى فيها مع مجموعة الأصحاب إلاّ ويعنى بأن يقرأ علينا من شعر العقاد فى إقرار جميل بأن حماس الشباب هو الذى جرأهم على هذه القامة العالية فى الشعر وغيره، والتى يجد شاعرنا حجازى سلواه وغذاءه فى الإطلال على معينه مقراً بعبقريته الشعرية وغير الشعرية.. لست أريد أن أطيل عليك، ولكن قل لى، عرفنا فى الصحافة التابعى وفكرى أباظة ومصطفى أمين وعلى أمين و كامل الشناوى والحمامصى وحافظ محمود وهيكل والصاوى محمد وأحمد بهاء الدين وإحسان عبد القدوس والشرقاوى وواكد والخولى وأمينة السعيد وغيرهم من القامات العالية التى سلمت الراية لمن تولوا رئاسة الصحف لنحو ربع قرن.. ترى من قدمت الصحافة المصرية فى ظل التجميد والركود امتداداً لهؤلاء.. ما الذى حدث فى مصر حتى أجدبت الساحة كل هذا الإجداب؟! وهل هى حقيقة أجدبت أم أننا قتلنا وبددنا فى الواقع قاماتنا العالية أو التى كانت فى الطريق إلى ذلك العلو!!.. ألم نجمد الأوضاع تجميداً تاماً ربع قرن من الزمان؟!.. ترى كم عدد الأوراق التى تساقطت فى هذه السنوات موتاً أو يأساً أو إحباطاً؟! كم عدد الذين قفلنا أمامهم أبواب الأمل فبقوا على "دكة الإحتياط" كلاعب الكرة المركون الذى يفقد لياقته ويعلوه الصدأ أو ينساه الناس؟!.. هل كان النسيان تلقائيا، أم فرضته بالأحرى سياسة "التجميد"؟!! أليس "التجميد"دعوة ظاهرة أو مستترة للموجود للتمسك بوجوده وتجاهل غيره والإمعان بالوعى وباللاوعى فى الانغلاق والتمحور فى "الأنا" التى لا ترى إلاّ نفسها، ثم الانزلاق - وأيضا بالوعى وباللاوعى - إلى الضن بما لديها والإحجام عن إفساح السبيل لمن يمكن أن يحل محلها؟!!

فى الزمن الذى به لحقنا، لم يكن هذا هو الحال.. لازلت أذكر، وربما فى كل مناسبة، أفضال أستاذى وأبى الروحى محمد عبد الله محمد.. أذكره ولا أنساه لأنه احتضننى وأعطانى زبدة مالديه، لم يخش أن أزاحمه فى المحاماه، فظل وفيا لأستاذيته لى إلى أن فارق الحياة، وأرجو أن أظل عارفاً بفضله إلى أن أموت.. لم يكن هذا هو شأن محمد عبد الله محمد فقط، بل كان شأن جيله والمناخ الذى عاشوه فجعل منهم "حضّانات" تعاف الأثرة وتبذل كل مالديها لتوالد وتواصل الأجيال.. هل بعيد عنا ماكان يفعله طه حسين والأساتذة الكبار جداً الذين خرجوا من عباءته فملأوا الدنيا؟! هل بعيد عنا صالون العقاد الذى كان يقيمه كل أسبوع ليحتضن البراعم مع القامات ويعطيها زبدة ما لديه حتى صاروا كباراً ملأوا الحياة من بعده واستكملوا رسالته؟! هل نسينا كيف تبنى عبد الوهاب والموجى والطويل ثم بليغ موهبة عبد الحليم حافظ؟!.. هل نسينا نجوم اليوم الكبار الذين بدءوا "كومبارس" فى مسرح المهندس أو مدبولى ومن قبلهما الريحانى ويوسف وهبى؟!!

مرة ثانية، ما الذى حدث فى مصر فأسلم النظام لهذا "الجمود" و"التجميد" الذى أفلس الحياة وأتى على الأخضر واليابس؟!.. هل تستطيع حين تتوقف وتتجمد ربع قرن على أشخاص بذواتهم فى السياسة والوزارة والصحافة والثقافة والإعلام... إلخ، أن تجد بعد ذلك أحداً تراه عينك أو تقدره بصيرتك لإجراء التغييرات والتبديلات الواجبة حتى لاتتجمد الحياة.. هذه الحياة التى تتجمد مع تجمد الناس الذين لابد يصيبهم الجمود وانعدام القدرة على الرؤية والابتكار من طول البقاء والاطمئنان إلى استمرارهم الذى ما عاد أحد يتظنن مجرد تظنن فى احتمال انقطاعه، فانطلق كل على سجيته - إلاّ الأفذاذ الأتقياء الأنقياء - يعيثون فى مواقعهم بما شاء لهم أن يعيثوا، لم ينج من ذلك اغتراف أموال الناس؟!!

ليس الاعتراض على "الجمود" أو "التجميد" ـ اعتراضاً بالضرورة على كل قامة موجودة أو كانت موجودة فى النظام، ففيهم ـ أو فى بعضهم ـ خبرات مشهودة، ولهم ـ أو لبعضهم ـ قامات عالية غير منكورة. الاعتراض ليس بالضرورة اعتراضاً على شخص كل منهم، وإنما هو اعتراض على طول أو جمود البقاء بلا تغيير أو تبديل، لأن ذلك يزين للناعم الباقى المطمئن للبقاء فى موقعه، أو الطامع فى التمسك به ـ أن يصادر على كل موهبة موجودة أو تبشر بالظهور، وقد يعرقل مسارها ويوقف نموها ويقوض أى فرص لتصعيدها.. هذه "المواهب" المبددة رصيد "فاقد" "مبدد" قد حرمت منه مصر.. وقد حاول النظام مرة ـ بعد أن بحت الأصوات ـ أن يداوى ولو بعض هذا الداء الوبيل، فأعلن أنه سيكون إلى جوار كل وزير نائب، إلاّ أن هذه الدعوة ـ أو البشارة ـ قتلت فى مهدها!.. قتلها أصحاب الحول والطول، فلم تر النور أو تدخل حيز التنفيذ قط، وسارعت أو أُسرع بها إلى طوايا أو أضابير النسيان!

هذا قضاء على البراعم الواعدة بالظهور، بيد أنه لم يكن كل مصابنا فى تبديد طاقاتنا البشرية بفعل سياسة الجمود والتجميد، فأشر ما كان ولايزال فيها ـ أنها بددت قامات عاليه قادرة على العطاء، بأكفأ وبأكثر من القابعين مطمئنين فى المواقع الخالدة!!.. كانت هذه القامات العالية "موازية" ـ عمراً على الأقل، للشاغلين للأماكن المحجوزة!! طال بقاؤهم على دكة الاحتياط ـ وانزلق بعض المشاهدين أو اللاعبين إلى اعتناق سخرية الاستهزاء منهم بقالة إنهم "مشتاقون"، دون أن يتوقف أحد ليسأل فيم يكون جرم "الاشتياق" لحمل النصيب من المسئولية، أو ليسأل ماهو الجمود الجامد الراكد الذى حول الجميع إلى مشتاقين لأن اللاعبين على المسرح غير قابلين تحت أى بند للتغير!!.. بعض هذه القامات العالية المتجاهلة (بفتح اللام) قتلها الانتظار واليأس والإحباط ففارقت الحياة غير آسفة على

مفارقتها، والبعض عاش عيشة أمض من الموت، لأنه يعانى المرارة التى لم يعد يكابدها الذين ماتوا !!.. هذا "التبديد" للقامات هو تبديد لكل فرص مصر فى النمو والتقدم، وأشر منها أن عدواها تتفشى فتقضى - وقد قضت - على تواصل الأجيال، وأعدمت أجيالاً وراء أجيال، دون أن يتفطن أحد إلى أن التآكل ثم الرحيل لاحق أيضا بالمتبوئين الذين داعبهم الخلود دون أن يدركوا أن كل شىء إلى نهاية!!.. هنالك حين تقع الواقعة ويرام التغيير الذى تفرضه الظروف أو يفرضه الموت فرضا، لايجد الموكل إليه الاختيار مجالاً يختار منه الصالح اللائق الجاهز لحمل المسئولية، لأنه وإن حاز "القدرة"، إلاّ أن الصدأ قد علاها من طول الركن وانقطاع التواصل مع المجريات الحاصلة التى يغدو الإلمام بها لازمة لاغناء عنها لاكتمال القدرة الجاهزة على حمل المسئولية!!